

1

ضوء ساطع في الظلام

تايلاند

كان عمر شان تسع سنوات عندما باعته أمه مع شقيقته إلى صاحب أحد المصانع في بلدة مامي ساي في أقصى شمال تايلاند. تقع هذه البلدة قرب الحدود مع بورما، وتضم سوقاً سوداء للبضائع المهربة على مختلف أصنافها. مقابل ذلك، حصلت الأم على أربعين دولاراً ثمناً للطفلين.

انضم شان وشقيقته بعد بيعهما إلى ثمانية أطفال آخرين في المصنع لتقشير أكوام الثوم. كان الأطفال يعملون في غرفة كبيرة، ملتصقة بمكتب صغير يجلس فيه صاحب المصنع، ويراقب العمال الصغار من خلال نافذة زجاجية. لم يكن الأطفال يتلقون أي أجر لقاء العمل الذي يقومون به. أما الطعام المقدم لهم فكان لا يسمن ولا يغني من جوع. كانوا يعملون لساعات طويلة، ويتعرضون إلى أقسى صنوف العقاب إن لم يقشّروا الكميات التي يحددها لهم.

كان الأطفال ينامون لساعات قليلة في شقة مجاورة، إلى أن يأتي صاحب المصنع لإيقاظهم ونقلهم في شاحنة إلى المصنع. ولم يعرفوا أي عالم آخر سوى المصنع، والشاحنة التي تقلهم، وتلك الشقة في الطابق الثاني. لا أحلام لهم كغيرهم من الأطفال؛ فعائلاتهم باعتهم ليصبحوا عبيداً.

وصفة للضعف الجماعي

وضعت وزارة الخارجية الأمريكية تايلاند في الترتيب الثاني في تقرير الاتجار بالبشر لعام 2009، مستندة إلى تفشي هذه الآفة في المناطق الحضرية

والريفية على حد سواء. وجاء في التقرير: تعدُّ تايلاند مصدرًا، ونقطة عبور، ومحطة استقبال للمُهرَّبين من الرجال والنساء والأطفال لغايات العمل القسري، والمتاجرة بالجنس⁽¹⁾.

وهناك دراسات إضافية، بما في ذلك الاستطلاع الذي نشرته صحيفة تايم آسيا، تؤكد فيه انتشار الرق في تايلاند. ويقول استطلاع الصحيفة: إن هذا الاتجار القذر ينتشر في أنحاء آسيا كلّها تقريبًا. ولكن تايلاند والهند على وجه الخصوص هما منبع تجارة اللحم البشري؛ حيث يجري تصدير الأطفال والبالغين واستيرادهم على نطاق واسع⁽²⁾.

وإذا كان الحال كذلك، فما سبب تقشّي العبودية في تايلاند وكذلك دول جنوب شرق آسيا جميعها؟ في الحقيقة أن هناك أربعة عوامل تعمل معًا من أجل تمزيق المجتمعات في تلك المنطقة، وهي: (1) حركة التصنيع المتسارعة (2) الفقر المدقع (3) الصراعات المسلحة (4) الانفجار السكاني. ومع أنه يصعب أن يتوصل رجال الاقتصاد والسياسة إلى اتفاق حول أيّ هذه العوامل يعدّ محوريًا في انتشار العبودية، إلا أنهم متفقون على أن منطقة جنوب شرق آسيا تمرّ بمرحلة انتقالية، وكلما تعرض أي وضع اجتماعي إلى تغيرات ما، فإن البؤساء هم الأكثر معاناة.

في السنوات الأخيرة، حققت منطقة جنوب شرق آسيا قفزات مذهلة في مجال التصنيع، بعدما تحوّلت قاعدة المنطقة الإنتاجية من زراعة الكفاف إلى التصنيع والزراعة التجارية (مع وجود فروق بين دولة وأخرى). ولذلك، وجد صغار المزارعين صعوبة في تأمين لقمة عيشهم من زراعة الأرض، فاضطروا إلى الهجرة صوب المدن بحثًا عن عمل يقتاتون منه.

ومع أن التصنيع يحمل معه إمكانية تحفيز نمو الاقتصاد الوطني، إلا أن هذه البلدان تعاني من سوء توزيع الثروة؛ إذ إن مجموعات النخبة تحتكر امتلاك الأراضي ورأس المال، وتشرف على الترتيبات المالية التي لا تأخذ في الحسبان احتياجات الجماهير الجائعة. ولا شك في أن دارسي التاريخ يتذكرون الفروق الاجتماعية التي رافقت عملية التصنيع في العالم الغربي. ومع أنه كان من المؤمل أن التصنيع في منطقة جنوب شرق آسيا سوف يحمل معه الرخاء الاقتصادي لغالبية المواطنين، إلا أن الفقراء يُتقاذفون كبقايا سفينة محطمة في بحر متلاطم الأمواج.

فعلى سبيل المثال، تقول دينا دودزر: إن الأزمة المالية العالمية في عام 2008/9 أدت إلى زيادة إغلاق المصانع، وارتفاع معدلات البطالة بين التايلنديين⁽³⁾. ونسبت إلى أحد موظفي وكالة إغاثة في بانكوك العاصمة قوله: كان على الوالدين والأطفال أن يكافحوا من أجل البقاء.

كما أن هذه القوى الاقتصادية قد ضربت كمبوديا بشدة؛ حيث يعيش شخص واحد على الأقل من بين كل ثلاثة أشخاص تحت خط الفقر. ومما يزيد الوضع سوءاً هو أن النساء الكمبوديات لا يحظين بفرصة الالتحاق بالتعليم المنتظم، ولا تعلم مهارات حرفية. وعليه، فإن تفشي الأمية بين النساء أعلى مما هي عليه بين الرجال إلى حد كبير⁽⁴⁾. ومع أن فرصة العثور على وظيفة في كمبوديا أو تايلاند نادرة، إلا أنها أكثر صعوبة بالنسبة إلى النساء؛ فأصحاب الشركات يرفضون توظيف النساء الأميات والفقيرات.

لقد شهدت منطقة جنوب شرق آسيا ما يكفي من النزاعات المسلحة طوال خمسين سنة الماضية، مما سبب المزيد من عدم الاستقرار الاجتماعي. وتقول الدكتورة سيريرات بوسورنهام الناشطة في المجال الاجتماعي ورعاية الأيتام⁽⁵⁾: إن الاحتقان الاجتماعي الذي سببته الحرب العالمية الثانية كان التربة الخصبة

لانتشار ظاهرة البغاء الخاص بالسياح الأجانب، مما دفع إلى إنشاء أول مركز للترفيه الجنسي في تايلاند. وقد انتعشت السياحة الجنسية هذه سريعاً وتوسعت، حاملة معها أبشع أشكال الاستغلال الجنسي لأغراض تجارية.

وبالمثل، سببت حرب فيتنام صدمة للشعب الفيتنامي، وامتد أثرها إلى شعب لاوس، وكمبوديا وتايلاند. وفي مثل هذا النزاعات، لا يكون المتنازعون الضحايا الوحيدين للحرب، بل والمدنيين أيضاً. إنَّ مثل هذه المجتمعات تحتاج إلى سنوات طويلة للشفاء من جراحاتها، حيث لا تزال قبائل كثيرة مشردة في مرتفعات لاوس، مثلاً، ولم تستقر حتى الآن. ولا يزال الوضع في بورما - أو جمهورية اتحاد ميانمار - أكبر شاهد على آثار الحرب المدمرة بعيدة المدى، حيث تحاول الحكومة فرض سيطرتها على القبائل وأمراء الحرب الذين يسعون إلى الاستقلال بمناطقهم. ويمكن للصراعات المسلحة أن تنشب في أي لحظة. فقد ذكر تقرير لجنة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين لعام 2009، أن المجموعات المسلحة البورمية كانت تجبر الأطفال من عمر عشر سنوات على العمل كحمّالين ومقاتلين في منطقة كارين على حدود تايلاند الشمالية⁽⁶⁾.

ومما زاد الطين بلة الانفجار السكاني في المنطقة، والذي فاقم من صعوبة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. وتشير الإحصائيات الرسمية إلى أن أكثر من نصف عدد السكان في كثير من دول جنوب شرق آسيا هم من الأطفال تحت سن 15 عاماً. وبسبب معاناتها من شحّ الغذاء، وندرة فرص العمل، فإن المجتمعات المحلية لا تملك الموارد الكافية لإعالة شبابها. والحقيقة المرة هي أن هؤلاء الشباب هم أول من يُضخّى بهم. وفي خضم هذا الانحلال الاجتماعي كلّ، تبرز العبودية كحلّ مالي مغرٍ. وفي الأغلب ما تستهدف التجارة بالبشر الأطفال في القرى الريفية النائية. ويستطيع مالك ماخور في جنوب شرق آسيا شراء امرأة أو طفل بثمن بخس؛ لا يزيد على عشرين دولاراً. أما سعر الفتاة العذراء فيتراوح

بين 500 – 1000 دولار. ويعدّ هذا مبلغاً كبيراً بمقاييس تلك الدول، خاصة إذا عرفنا أن الألف دولار يعادل معدل الدخل السنوي للفرد في كمبوديا بثلاث مرات ونصف⁽⁷⁾. ولذلك، فإن بيع العائلة لابنتها أو (بدرجة أقل) لابنها في حالات العوز الشديد أمر لا يدعو إلى الدهشة. في الماضي، درجت العائلات الفقيرة على بيع أطفالها للأثرياء خدماً في منازلهم أو عمالاً في الحقول الزراعية. أما في الفترة الأخيرة، فقد رفعت تجارة الجنس الطلب على الأطفال العبيد؛ والطبقات الفقيرة توفر العرض لذلك الطلب. وفي كل الأحوال، لا تتوافر إحصائيات دقيقة عن عدد أولياء الأمور الذين يبيعون أطفالهم لتجار الرقيق. لكن مقالة نُشرت في مجلة يو. إن. كرونيكل *UN Chronicle* في عام 2003 أشارت بوضوح إلى تورط أفراد العائلة في هذه الصفقات، ومما جاء فيها: غالباً ما يستخدم التجار السكان المحليين في تجمع أو قرية ما للبحث عن أطفال وقتيات صغيرات. وهم يستهدفون العائلات الفقيرة. وفي بعض الحالات، يبيع أفراد العائلة الأطفال إلى الوسطاء أو التجار⁽⁸⁾.

وقد كشفت إحدى الدراسات أن 35% تقريباً من العائلات الفيتنامية التي تعيش في كمبوديا تبيع بناتها في سوق البغاء، وأن ما بين 25% – 35% من العائلات الأخرى تفكر جدياً في هذا الخيار، ولكنها لا تكمل عملية البيع⁽⁹⁾. ويعيش الفيتناميون أقلية مُهمّشة في كمبوديا. ولهذا، علينا أن نحذر التعميم بناء على هذه النسب المئوية. ومع ذلك، فإن الأرقام تعكس اتساع ظاهرة بيع البنات وقبولها ثقافياً.

ولكن السؤال هو: لم يبيع الأب طفله أو طفلاته؟ معظمنا، لا يجد مسوّغاً للإقدام على هذه الخطوة تحت أي ظرف من الظروف أبداً. (ومع ذلك، علينا التوقف هنا وتذكّر أن مجموعات مناهضة الاتجار بالبشر في الولايات المتحدة قد وثّقت حالات لعائلات أمريكية باعت أطفالها عبيداً. انظر موقع www.Slav-erylhop.org لمعرفة مدى انتشار الاتجار بالبشر داخل الولايات المتحدة).

وفي هذا السياق، علينا أن نتذكر بأن البيئة الثقافية والدينية في تايلاند تضع المرأة في مكانة اجتماعية متدنية. فالتقاليد الدينية البوذية تشجع معاملة المرأة كمواطن من الدرجة الثانية. بل إن البوذية (تيراهافادا) Theravada في تايلاند ترى أنّ المرأة لا تستطيع الوصول إلى المستويات العليا من التنوير الروحي Spiritual Enlightenment، وأن أفضل شيء يمكن أن يطمحن إليه في هذه الحياة الدنيا هو أن يقمن بمزيد من الأعمال الصالحة حتى يولدن ذكوراً في حياتهن الأخرى.

أيضاً، تعاني تايلاند من تمييز ثقافي كبير يساعد تجار الرقيق على اقتناص الأطفال من مجموعات سكان البلاد الأصليين في المناطق الريفية، وزجهم في مواخير الجنس في بانكوك، وفوكيت، وشيانغ مابي⁽¹⁰⁾.

وفي الحقيقة أن اللاجئين في أنحاء العالم بأسره يواجهون مصيراً مجهولاً محفوفاً بالمخاطر؛ إذ يصبحون أقلية في مجتمع جديد، دون أي صفة شرعية، إضافة إلى تعرضهم للاستغلال من لدن الأشخاص المتنفذين. فعلى سبيل المثال، يرى تجار الرقيق التايلنديون التجمعات البورمية بركة عميقة لصيدهم⁽¹¹⁾.

كرو نام؛ رسامة تحولت إلى مناهضة للرقّ

ربما يكون من المستبعد جداً أن يتحول فنان يحمل شهادة جامعية في الفنون الجميلة إلى منقذ أطفال. لكن الحال يختلف بالنسبة إلى كرو نام التي تراكبت على الخطوط الأمامية لجبهة مناهضة العبودية في تايلاند.

في بداية الأمر، لم تكن على علم بما يدور حولها. ولكنها اكتشفت فجأة أنها لا تستطيع تحمل رؤية أطفال الشوارع الذين يعيشون على جوانب قنوات المياه التي تحيط بمدينة شيانغ ماي، أكبر مدن شمال تايلاند. وفي أحد الأيام، حملت

أدوات الرسم من قماش وألوان وفُرش، وذهبت إلى حافة النهر للاستماع إلى حكايات أولئك الأطفال، وحولتها إلى لوحات تروي قصصاً رهيبه.

اكتشفت كرو نام أن معظم الأطفال ليسوا من تايلاند، وأن كثيرين منهم جاؤوا من بورما، ولاوس، وفيتنام، وكمبوديا. روى لها الأطفال رحلتهم حتى وصولهم إلى شوارع مدينة شيانغ ماس. أخبرها الأطفال البورميون عن زيارة رجل تايلندي أنيق قريتهم، وكان يصحبه طفل حسن الهندام عمره أربعة عشر عاماً، ويتحدث اللغة التايلاندية بطلاقة. قال الرجل لآباء هؤلاء الأطفال إنه يقدم منحة دراسية للأولاد الصغار، والالتحاق بمدرسة راقية في تايلاند. وذكر أنه سوف يتحمل تكاليف دراستهم ومعيشتهم، ثم قال، مشيراً إلى الطفل البورمي الذي يرافقه: انظروا إلى هذا الطفل من بني جلدتكم كيف أصبح على أحسن حال! وإذا ما سمحتم لأطفالكم بمرافقتي إلى مدينة شيانغ ماي، فسوف أعمل لهم ما عملته له.

وبالرغم من أن مواطني بورما القبليين يترددون كثيراً في جعل بناتهم يفارقنهم، إلا أنهم يتساهلون في السماح للأولاد بالسفر بحثاً عن لقمة العيش. وهكذا، وافقت بعض العائلات على السماح لأبنائها بالذهاب مع الزائر التايلاندي. وعندما وصلوا إلى شيانغ ماي، باعهم ذلك التاجر فوراً إلى أصحاب مواخير الجنس.

وقال الأطفال الذين عاشوا على طول امتداد حافة النهر، إنهم كانوا من الأطفال المحظوظين لأنهم تمكنوا من الهرب، في حين ظل كثير من أصدقائهم سجناء في بيوت الدعارة تلك. شعرت كرو نام بالدم يفور في عروقها وهي تستمع إلى حكايات هؤلاء الأطفال، فقررت ألا تظل غير مبالية ولا متفرجة، وأن عليها فعل شيء ما. لم يكن لدى كرو نام أي خطة محددة عندما اقتحمت أول بؤرة جنس تصادفها في تلك الليلة. ولم تحاول حتى مساومة مالك الحانة، مفترضة

أن ذلك سيكون مضيعة للوقت. لقد كانت مهمتها واضحة؛ إنقاذ أكبر عدد ممكن من الأطفال. رأت في الماخور الأول الذي دخلته أطفالاً يجلسون حول طاولات يرقّهون عن الزبائن الذكور. أخذت تقترب من كل طاولة، وتهمس في أذن الطفل بهدوء: هيا بنا نهرب. ولم تمض سوى دقائق قليلة حتى كانت تقود ستة من أولئك الأطفال الصغار عبر الباب، وتأخذهم إلى مخبئها.

وبالرغم من أنها قامت بعدة غارات مرتجلة أخرى على بيوت الدّعارة، إلا أنها قررت أن تعمل بحذر بعد أن تلقت تهديداً بالقتل من أصحاب تلك البيوت؛ إنها تسرق ممتلكاتنا. هكذا اتهموها.

تشان؛ المصير المرّ

لم يكن تشان يفهم لماذا كان والده يترك البيت كثيراً، ويعبر الحدود إلى تايلاند. كان يومها صغير السنّ، ولم يدرك، حينها، أن والده كان يهرب المخدرات. كان والده يغادر في الصباح الباكر ليجتمع مع موردي المخدرات التايلانديين، ثم يعود أدراجه إلى بورما لتسليم البضاعة للمروجين. ولكونه الوسيط في هذه الصفقات، فقد كان يحصل على جزء صغير من الأرباح رغم المخاطر الكبيرة التي يتعرض لها؛ لأن النظام في بورما لا يتساهل كثيراً مع مهربي المخدرات المستقلين.

وفي إحدى الليالي، انقلبت حياة تشان رأساً على عقب، عندما اقتحم الجنود البورميون المنزل وهم ينادون على والده بصوت عالٍ. عندما خرج الأب إليهم، أطلق الجنود النار عليه من مسافة قريبة، وقتلوه، في حين تكوّم تشان وعائلته في إحدى زوايا المنزل وهم يصرخون. كان أفراد العائلة ينتظرون توجه فوهات البنادق صوبهم، لكن الجنود غادروا المكان وتركوهم في رعبهم مصدومين. استقبلت العائلة العزاء في الأب القتل مدة ثلاثة أيام. خلالها، كان تشان يشاهد

الجيران وهم يحضرون معهم قليلا من الطعام الذي كان أقصى ما استطاعوا توفيره. وفي اليوم الثالث، أُحرقت جثة الوالد في المعبد كما تقضي العادات البوذية، وعادت العائلة إلى حضن فقرها وعوزها.

تأكدت والددة تشان سريعا أنها لا تستطيع إعالة أسرتها، فاضطرت إلى الاستجداء في الشوارع. ولم يمض وقت طويل حتى عثر تاجر للرقيق على فريسته. كان ذلك التاجر يملك مصنعا لتعليب الثوم، وعرف أن لدى الأم الأرملة طفلين، دون أي مصدر دخل منظم، فأقنعها أن تباع تشان وشقيقته لينضموا إلى عمال السخرة.

عمالة الأطفال

في تقريرها لعام 2009 حول وضع أطفال العالم، أشارت منظمة الأمم المتحدة للطفولة - اليونيسف، إلى أن ما بين 150 مليون طفل في أنحاء العالم من عمر 5 - 14 عاماً يعملون يوميا، منهم 45% من أطفال كمبوديا. ومع أن أرقام عمالة الأطفال أقل إلى حد ما في الدول الأخرى في منطقة جنوب شرق آسيا، إلا أنها تظل مدعاة للقلق. وقد كانت نسبة عمالة الأطفال في دول تلك المنطقة كما يلي: فيتنام 16%، لاوس 11%، تايلاند 8%. ولم يورد التقرير أرقاما خاصة عن بورما نظرا لصعوبة الحصول على بيانات من ذلك البلد المغلق على نفسه⁽¹²⁾.

وبدورها، درجت منظمة العمل الدولية على توثيق عمالة الأطفال وآثارها المدمرة. ففي دراستها بعنوان (أعطوا فرصة للبنات: معالجة عمالة الأطفال) قدّرت المنظمة أن نحو 100 مليون فتاة حول العالم يعملن في ظروف عمل خطيرة تضر بصحتهن ونموهن، وتقلل من فرصهن التعليمية⁽¹³⁾. وجاء في الدراسة أيضا أن تجارة العمالة غير الشرعية ترتبط بالعمل في الزراعة، والخدمة المنزلية،

وأعمال البناء والإنشاءات، والقطاعات غير المنظمة. وأن 43% من الأطفال المهرّبين إلى سوق أعمال السّخرة يُستغلون في التجارة الجنسية⁽¹⁴⁾.

وباختصار، فإن الضحايا من الأطفال يتعرضون إلى العنف الشديد، والصدمات النفسية، والأمراض الجنسية مثل نقص المناعة المكتسب؛ الإيدز. وتقترح منظمة العمل الدولية عدة حلول لمعالجة عبودية الأطفال، حيث تقول: إن إحدى الأولويات المحددة في الدراسة هي منع عمالة الأطفال، من خلال التطبيق الدقيق للقوانين والتنظيمات، ورفع درجة التوعية بخصوص العمالة القسرية بالنسبة إلى المجتمع ككل، وقيام الشرطة والسلطات القضائية والسلطات المسؤولة الأخرى بالمهام الموكولة إليها⁽¹⁵⁾. ومثل معظم الدول في العالم، فقد أصدرت تايلاند قوانين تحظر تجارة الجنس، والعبودية، وعمالة الأطفال، والزواج القسري، والاستغلال الجنسي للأطفال، والحرمان من الحرية⁽¹⁶⁾. خلاصة القول، فإن الحل يعتمد على التطبيق المستمر للقانون، كما تقتصر المنظمة. وقد ذكر تقرير وزارة الخارجية الأمريكية لعام 2009 بعنوان الاتّجار بالبشر: على الرغم من أنّ الحكومة التايلاندية قد أقرت قانوناً جديداً، ودربت المسؤولين على تنفيذه، إلا أنها نادراً ما تحاكم المتورطين في الاتّجار بالبشر، ولم يحدث أنها أدانت أحداً على ارتكاب هذه الجريمة في عام 2008⁽¹⁷⁾.

تشان؛ الهروب المؤلم صوب الحرية

كان تشان يشعر بغثيان من رائحة الثوم، وبالخوف الشديد من كلاب الحراسة الموجودة في المكان لضمان عدم هروب الأطفال. كما كان جسمه يحمل آثار كدمات من الضرب المتكرر. ولكن أكثر شيء كان يؤلمه هو رؤية أخته الصغيرة تعاني من المرض والهزال. لقد كان عاجزاً عن مساعدتها وعن مساعدة نفسه.

ومع أن كثيراً من الأطفال قد حاولوا الهروب من قبل، إلا أن أجسادهم كانت تحمل آثار عضّات الكلاب دليلاً على فشل محاولاتهم. ولكن تشان قرر الهرب، وأخذ يخطط لنجاحه. وفي إحدى الليالي، استجمع كل ما لديه من شجاعة، وانتظر حتى توارت الكلاب وراء المبنى، فقفز من نافذة الدور الثاني إلى الشارع المُعبّد. وبالرغم من الألم الذي كان يسري في جسده من شدة السقوط، إلا أنه كان متيقناً من أن شقيقته الهزيلة سوف تموت إذا ما قفزت مثله، وأن عليه الابتعاد عن هذا المكان بأقصى ما تستطيع أن تحتمله ساقاه. واتخذ القرار المؤلم بالتخلّي عن شقيقته وراءه، وأخذ يعدو في شوارع مدينة ماي ساي.

لم يفكر تشان مطلقاً بالعودة إلى أمه في بورما. واعتقد أنها، مثلما كان يفعل صاحب المصنع، سوف توسعه ضرباً على عصيانه، بل الأسوأ من ذلك هو أنها قد تعيده ثانية إلى المصنع الذي هرب منه. لقد كان يشعر بالوحدة والألم والخوف. ومع ذلك، كان مصمماً على البقاء حيّاً.

كرو نام؛ الصديق وقت الضيق

عرفت كرو نام أن مجرد اقتحام مواخير الجنس، وإنقاذ الأطفال، لا يمثل استراتيجية بعيدة المدى، فقد كانت تعرض سلامتها وسلامة الأطفال للخطر. ولذلك، استبدلت طريقتهما السابقة؛ فشكّلت فرقا تجوب شوارع أسواق الظلام في تشيانغ ماي بحثاً عن الأطفال القادمين بالحافلات من الحدود التايلاندية - البورمية، في الوقت الذي كان فيه عملاء مواخير الجنس يبحثون عن الأطفال الهارين. وكان السباق مريعاً على من يصل إلى هؤلاء الأطفال أولاً.

وتأكدت كرو نام أنها لو انتقلت إلى موقع متقدم قبل وصول الأطفال إلى تشيانغ ماي، فسوف تنتصر على تجار الرقيق. لذا، انتقلت إلى مدينة ماي ساي

الحدودية التي تبعد 150 ميلا عن تشيانغ ماي، وأنشأت مركز إيواء استقبال في بداية الأمر 25 طفلا، ثم وسعته بعد ذلك ليستطيع استيعاب نحو 60.

وفي إحدى الليالي، وعندما كانت تسير في شوارع المدينة، التقت تشان صدفه وهو يغوص في حاوية قمامة أملا في العثور على فتات يسدّ به رمقه. وغالبا ما يحتال أطفال الشوارع على العيش ببيع الأشياء القابلة للتدوير التي يعثرون عليها في مزابل ماي ساي. عندما نظرت كرو نام إلى تشان، عرفت أنها أمام طفل في مأزق. أخبرها أن عمره 11 عامًا، ولكن جسده لم يكن يفصح عن عمره لأنه كان مشوهاً من الحروق الشديدة (طريقة صاحب المصنع المختارة في التعذيب)، وهزिला بسبب سوء التغذية.

لقد سبق لتشان أن شاهد كرو نام من قبل عندما كانت تحت الأطفال على الالتحاق بالأنشطة التي تديرها منظمة –Volunteers for Children Development Foundation (VCDF) ment Foundation (VCDF) «متطوعون لتطوير الأطفال». ورغم تشرده، إلا أنه كان متحفظاً وهي تتحدث إليه؛ إنه لا يثق بالبالغين. صحيح أنه اشترك في شجارات الشوارع، وقضى يوماً أو يومين دون طعام، أو فقد ذاكرته بسبب استنشاقه الصمغ الصناعي، إلا أنه، رغم كل هذا، كان حراً.

وفي إحدى الليالي، ذهب تشان إلى مركز الإيواء. وعندما دخل المبنى المكون من ثلاثة طوابق، سمع الأطفال يتدربون على مهارات اللغة، وشاهد نساء في مجموعات صغيرة يتعلمن الخياطة، وشاهد الكبار والصغار من زوار المركز يشاركون في الرسم والتلوين. عندها، شعر أن المركز مكان مريح، وأصبح يتردد عليه بانتظام مستفيداً من العلاج، ووجبات الطعام، والاستحمام المجاني. ونشأت بينه وبين العاملين في المركز علاقة صداقة، وعلموه القراءة والكتابة وبعض الألعاب. ومع ذلك، فإن الأحلام – أو الكوابيس بالأحرى – لم تتوقف. فبالرغم من أنه أصبح قوياً بدنياً وعاطفياً، إلا أن صورة شقيقته ظلت أمام ناظره. كان

يسأل نفسه دائماً: هل ما تزال حية؟ أما تزال سجيناً في المصنع؟ وفي أحد الأيام، قرر أن ييوج بما يعمل في داخله. لكن كرو نام أحست بخوفه وتردده في كشف معظم تفاصيل ما جرى له. وأخيراً، أقنعت بالانتقال إلى مركز إيواء الأطفال الذين يجري إنقاذهم، وحمل اسم «أصدقاء على قارعة الطريق» الذي يقع في الريف خارج مدينة ماي ساي. في ذلك المكان، نام تشان في سريره آمناً لأول مرة منذ سنوات؛ ليس تحت جسر ما، ولا على أرضية بيت سجان عبيد.

وبعد أن كان تشان منعزلاً وخائفاً، أصبح ذاك الطفل المرح الذي استطاع تكوين صداقات مع أطفال آخرين من أترابه. كل ذلك، بعد انتقاله إلى مركز «أصدقاء على قارعة الطريق»، إنها تشان أخيراً. وأخبر كرو نام بالقصة الكاملة، وبالأيام التي قضاها مُستعبداً في مصنع الثوم. وظل تشان كل ليلة يفكر في شقيقته سجيناً بمصنع الثوم، ويتصور كيف ستموت دون أن يهرع أحد لمساعدتها، وكانت الدموع تنساب على وجنتي الطفل الذي لم يجرؤ أن يبكي مطلقاً.

آني ديزلبيرغ؛ ضوء في الظلام

لحسن حظ المُستعبدين في تايلاند، فإن كرو نام ليست المعارض الوحيد للعبودية الذي يقاوم على الخطوط الأمامية. فهناك آني ديزلبيرغ –Annie Die-selberg التي رأت الحرية هدفاً لحياتها، وأنشأت مشروعاً في بانكوك يحمل اسم «نايت لايت» «ضوء الليل» أنترناشيونال Night Light International، الذي يوحى بصورة ضوء ينير ظلام التائهين، ومبشراً بغد أفضل. وقد امتزج إبداعها الرائع مع عاطفتها الشديدة في إخراج هذا المشروع إلى الوجود. وعندما أطلقت آني مشروعها في عام 2005، كانت تأمل في توفير بدائل للفتيات اللواتي يعملن في مواخير البغاء التجارية. لقد ظلت تعمل مع زوجها لعشر سنوات في مساعدة ضحايا تجارة الرق في بانكوك. وبعد أن شاهدت نساءً كثيرات يتعرضن

إلى استغلال جنسي يحطّ من كرامتهن، أخذت أني تفكر في تغيير هذه الحال. وكانت أمام خيارين؛ الاستمرار في مساعدة الضحايا المحطمة بعد أن يرميها المستغلون، أو مواجهة المشكلة وجهاً لوجه والاصطدام بها. لقد قررت الخيار الصعب.

وقد اعتادت أني سلوك الطريق الأقل ارتياداً، وهي التي قضت معظم طفولتها في زائير، قبل أن تنتقل عائلتها إلى تايلاند وهي في طور المراهقة. وقد عاشت سنة واحدة مع عائلتها في تايلاند، ثم التحقت بمدرسة داخلية في الهند. وبعد تخرجها في المدرسة الثانوية، ظهرت في جامعة ويست فرجينيا وهي تلبس السروال والقميص والخلخال على طريقة نساء شبه القارة الهندية. وتقول أني وهي تتذكر تلك الأيام: يومها، لم يعرف الطلاب الآخرون كيف يصنفون هذه البنت البيضاء الغريبة ذات الشعر الأحمر التي كانت تلبس وتتصرف كأى فتاة أجنبية تماماً. وتضيف ضاحكة: ربما كان شكلي مثل أي فتاة أمريكية عادية، ولكني بالتأكيد أثرت بعض الأفكار غير العادية داخل قاعة المحاضرات.

والى هذا اليوم، فإن مظهرها يبدو مخادعاً؛ حيث ما تزال قامتها منتصبة، وبنيتها قوية رغم تخطيها سن الأربعين وإنجابها أربعة أطفال. إنها تتميز بعاطفة متقدة، وتتحدث وتتصرف بحماس الأنبياء وصدقهم. وعن تجارة الجنس تقول: قد تبدو لك المرأة كما لو أنها حرة وأنت تجوب شوارع بانكوك، ولكنها ليست كذلك. غالباً ما يجري نقل هؤلاء النساء المهرّبات من مكان إلى آخر، وكثيرات منهن لا يعرفن اللغة ولا العملة النقدية التي تتعامل بها تلك البلاد. إنهن يشعرن بالوحدة والعزلة عن الأصدقاء أو العائلة التي قد تمد لهن يد العون. ولذلك، قررت أني اقتحام الميدان ومدّ تلك اليد؛ ففي مطلع عام 2005 اصطحبت مجموعة أمريكية زائرة إلى أحد مواخير الجنس. وفي حين ظل الرجال خارج المكان، أخذت أني عددًا قليلاً من النساء إلى الداخل. وتقول أني عن ذلك: جلسنا مع فتاة عمرها

22 عاماً فقط، وهي أم لطفلين. أخبرتنا كم تكره العمل في هذا المكان. وعندما سألتها أين تحب أن تكون بدلاً من ذلك، قالت: في البيت بصحبة طفلي. دفعت آني ورفيقاتها إلى صاحب الماخور 600 بات (نحو 15 دولاراً) لاستئجار المرأة ليلية واحدة، فهذا هو السعر المعتاد الذي يدفعه الزبائن لليلة ترفيه كاملة. وقد تحول هذا المبلغ إلى ثمن للتوبة؛ لأن تلك المرأة لم تعد إلى مكان عملها القديم.

قبل مدة قصيرة، تدرّبت آني على كيفية صنع المجوهرات، فعرضت على تلك المرأة أن تعمل معها في صنع المجوهرات لأغراض تجارية. قبلت المرأة العرض وكانت أول موظفة في مشروع « نايت لايت ». لم يكن لدى آني ورشة، أو مكتب عمل في ذلك الوقت، فطلبت من موظفتها الجديدة مقابلتها في مطعم معروف في بانكوك. وبين رائحة الشواء التي تعبق بالمكان، أعطت آني تلك المرأة أول جلسة تدريب في صنع المجوهرات، ثم عادت المرأة إلى بيتها وهي تحمل حقيبة مليئة بالخرز والأحجار الكريمة.

سلاح العار

العار هراوة تهوي على رأس المرأة المُستعبدة عند كل منعطف طريق. وتبدأ الرحلة مع العار عندما يبدأ الآباء في العائلات الفقيرة بلوم البنات على فقرهم. ولذلك، فإن معاناة الوالدين تجعل البنت تشعر بالعار وتأنيب الضمير، وبأنها السبب في هذا العوز. وكما تقضي التقاليد الاجتماعية، فإن البنات الصالحات يتحملن مسؤولية صحة آبائهن وإعالتهم، وعليهن أن يكنّ أكثر استعداداً للتضحية، مهما كانت، لتغيير وضع آبائهن.

كما أن نظرية المجتمع إلى الطهارة الجنسية ذات أثر كبير في شعور الفتيات بالعار. فعندما تفقد الفتاة غير المتزوجة عذريتها، فإنها تعدّ منهوية، ولا فرق إن كان أحد أفراد العائلة هو من اغتصبها جنسياً، أو أي شخص آخر. فالطهارة

كل لا يتجزأ، فهي إما أن تكون عذراء أو لا تكون. وسوف تعاملها عائلتها كلطخة سوداء في شرف العائلة، إضافة إلى عزوف أي شخص يحترم نفسه من الاقتران بها. ولذلك، فقد تُباع هذه الفتاة في سوق البغاء بعد أن فقدت طهارتها؛ ومن هنا ترتدي رداء العار الذي سيلازمها ما دامت حية.

إنّ تجار الرقيق وأصحاب بيوت الدعارة يستخدمون هذه القيمة الثقافية في النظرة إلى العذرية لاستغلال الفتيات. فإذا ما قاومت الضحية الجديدة فكرة ممارسة الجنس مع زبون غني باحث عن المتعة، فإن الشخص الذي يستعبد لها قد يفتصبها بنفسه، ثم يقول لها: لقد أصبحت الآن بضاعة مستعملة. وعندها، لن تجد هذه الفتاة التي تعرف القيمة الاجتماعية للعذرية أي حل سوى الاستسلام للأمر الواقع في بيت الدعارة. لقد فقدت كل شيء، وعائلتها سوف ترفضها، وجيرانها سوف يعاملونها كمنبوذة، ولن تكون أمامها أي فرصة للعيش في مجتمع محترم. وعند استسلام الضحية، سوف يستفيد منها أصحاب مواخير الجنس، والباحثون عن المتعة، وقد يصل الأمر إلى المسؤولين الحكوميين في بعض الأحيان. وتشير منظمة العمل الدولية إلى أن السياحة الجنسية تساهم بنحو 15% من الدخل القومي لدول مثل: ماليزيا، وتايلاند، وإندونيسيا والفلبين⁽¹⁸⁾.

آني ديزلبيرغ: الإعداد للمستقبل

إنّ البرامج التي تشجع الفتيات على الهروب من تجارة الجنس، ثم تتركهن فقيرات وعاطلات عن العمل، لا تؤدي إلى قصص نجاحات طويلة الأجل. وتظل مثل هؤلاء الفتيات عرضة إلى الاختطاف من تجار الرقيق مرة أخرى. ولذلك، أنشأت آني ديزلبيرغ مشروعها لإعداد الفتيات للحياة بعد تركهن تجارة الجنس.

ويمكننا النظر إلى مشروع «نايت لايت» من عدة زوايا. فبالنسبة إلى المبتدئات، يعد هذا المشروع عملاً تجارياً لتدريب النساء على صنع المجوهرات التي أصبحت تعرض اليوم في تايلاند والولايات المتحدة. وعن هذه التجربة، تقول آني: كل واحد يجني أموالاً من هؤلاء النساء: تاجر الرقيق، وصاحب الماكور وغيرهم. لكن هؤلاء النساء أنفسهن لا يفارقن مستنقع الفقر. والمفارقة هنا أن المجتمع لا يدفع راتباً محترماً لامرأة فقيرة، في حين يدفع الباحثون عن اللذة بسخاء لاستغلال جسدها لدقائق معدودة.

وبالرغم من محدودية الميزانية، إلا أن مشروع «نايت لايت» يدفع ضعف الحد الأدنى الذي ينصّ عليه القانون التايلاندي. وبالتأكيد أن هذا الراتب لا يجعل النساء العاملات غنيّات، ولكنه يساعدن على الحياة النظيفة بدخل منتظم. وإذا أرادت الضحية الالتحاق بهذا المشروع، فعليها أن تعمل مدة 40 ساعة في الأسبوع، وترك تجارة الجنس تماماً.

وتهدف سياسة المشروع من وراء دفع راتب منتظم بدلاً من دفع ثمن لكل قطعة يجري إنتاجها، إلى تسهيل رسالة المشروع الأخرى؛ وهي إعداد النساء صحياً وتعليمياً. فبالإضافة إلى العمل المطلوب في ساعات الدوام، يجب على النساء حضور ورشات عمل في العناية الصحية، والوقاية من الأمراض الجنسية، والإدارة المالية الشخصية، والإعداد الروحي، واللغة الإنجليزية.

لقد وظّف مشروع «نايت لايت» 80 امرأة، مع أنّ آني تقول بأن 130 امرأة تدربن في ورش المشروع منذ انطلافته في عام 2005، وأن هناك لائحة انتظار طويلة بالنساء الراغبات في الانضمام إلى هذا المشروع. ولكن الضوابط وشحّ الموارد المالية عقبتان كبيرتان أمام توسّع المشروع. وفي الحقيقة أن آني لم تكن تنوي التوسع بالمشروع بهذه السرعة، إلا أنّ التوسّع هذا حدث تلقائياً بعد انتشار خبر المشروع في بيوت الدعارة، وتزايد عدد الهاربات منها. حينها، مضت

آني قدما نحو الأمام. وعن ذلك تقول: لقد شعرت في المراحل الأولى أن علينا إيقاف توسعنا. ولكنني تلقيت مكالمة من فتاة شابة كنت أدعولها لست سنوات تسأل إن كنت أستطيع مساعدتها على ترك تجارة الجنس، فرأيت في ذلك إشارة من الله للاستمرار.

شون ليتون؛ اعتقال عصابة تجار البشر

تصور نفسك في غرفة مظلمة، تمد يدك لتمسك شيئاً تعتقد أنه أفعى، ثم تدرك أنك تمسك ذيل فيل. هكذا يصف شون ليتون، نائب رئيس بعثة العدالة الدولية، الصدف التي ينطوي عليها التحقيق في عمليات الاتجار بالبشر، حيث قد تؤدي معلومة بسيطة إلى عملية اعتقال كبيرة.

تستخدم بعثة العدالة الدولية مجموعات خبيرة ومدربة في العدالة الشعبية؛ محقق جرائم، مدعين عامين، محللين سياسيين ودبلوماسيين - لمواجهة العبودية أينما وجدت. وتجمع هذه الفرق إثباتات تفصيلية عن الحجز غير القانوني، وتشجع سلطات الشرطة المحلية على تحرير العبيد. ثم تتعاون هذه الهيئة بعد ذلك مع المحامين المحليين لرفع قضايا أمام المحاكم ضد المهربين أو من يحتجزون عبيداً.

ويشير ليتون إلى معلومة تلقاها من منظمة غير حكومية في تايلاند في أواخر عام 2004، مفادها أن رجلاً تايلاندياً اتصل بها بعد أن أُجبر على دفع 1500 دولار لشراء حرية ابنة أخيه من الأسر. وفي التفاصيل، أفاد الرجل أن ابنة أخيه سيري هاتفته من ماليزيا طالبة النجدة. كانت مجموعة من الرجال المسلحين تحتجزها رهينة في أحد بيوت الدعارة، طالبة فدية لإطلاق سراحها. وفعلاً، أطلق المسلحون سراح سيري بعد دفع الفدية، وهي الآن في بيتها سالمة. إلا أن عم البنت يطالب بمحاكمة هؤلاء الأشخاص الذين أكرهوا البنت على ممارسة البغاء.

التزمت المنظمة غير الحكومية بمساعدة العائلة، ولكنها أدركت أن ليس بمقدورها التعامل مع المجموعات المسلحة في سوق الجنس القسري، ولذلك، طلبت مساعدة بعثة العدالة الدولية، والتي تعارض دفع أموال لتجار الرقيق كغدية لإطلاق سراح العبيد.

حصلت البعثة من سيري على معلومات مالية وشخصية قليلة عن تجار الرقيق الذين كانوا يحتجزونها، مما هيا فرصة فتح تحقيق في القضية.

اجتمع أحد المحققين مع سيري لتسجيل كل شي تعرفه عن مختطفيها. أخبرته الفتاة أن زعيم العصابة التي اختطفها يدعى جوني. وقالت إنها كانت تعمل خياطة في مدينة ماي ساي التايلاندية براتب مقداره 75 دولاراً شهرياً، وهوراتب محترم بالمقاييس المحلية، وبخاصة لفتاة في العشرينيات من عمرها. لكن امرأة تعمل لحساب جوني أقنعتها بتأمين وظيفة لها في أحد مطاعم ماليزيا براتب أولي قدره 250 دولاراً في الشهر. يومها، قالت لها تلك المرأة: أنت فتاة شابة، وعمرك 21 سنة. ومن المحتمل أن تقابلي هناك رجلاً صينياً ثرياً يعشقك ومن ثم يتزوجك.

عندما وافقت الفتاة على العرض، ساعدتها تلك المرأة على تقديم طلب للحصول على جواز سفر، وتولت أمر ترتيبات الانتقال من تايلاند إلى ماليزيا. في اليوم المحدد للسفر، وضعت المرأة الفتاة على متن حافلة صغيرة مع مجموعة من الفتيات المحظوظات اللواتي حصلن على وظيفة في مطعم، وحال عبورهن حدود تايلاند الجنوبية، ووصلهن إلى المدينة المقصودة، كان جوني في انتظارهن.

ولخية أمهن، أخبرهن جوني أن مصلحته في إحضارهن إلى هذه المدينة تقضي بربطهن بعقد لمدة ستة أشهر للعمل في مهنة الترفيه. وللتحكم بهن أكثر، طلب منهن تسليم جوازات سفرهن للمحافظة عليها.

وقد أعطت سيري محقق بعثة العدالة الدولية ما يكفي من المعلومات للتأكد من أن جوني لا يعمل بمفرده، بل هو جزء من عصابة جريمة منظمة. ففي أثناء الأسابيع القليلة التي قضتها في ماليزيا، أجبرت سيري على العمل في عدة بيوت للدعارة، تعمل في كل واحد منها مئتا امرأة أو أكثر. وقالت الفتاة إنها كانت تحت رقابة دائمة، وإن الحراس المسلحين لم يفارقوها إطلاقاً.

كان المجرمون يرفضون أن يبني العبيد أي علاقة وثيقة يمكن من خلالها تدبير عملية هروب، ولذلك كانوا ينقلون هؤلاء النساء باستمرار من بيت إلى بيت ومن ماخور إلى آخر. وببساطة، عرفت سيري أن معظم الضحايا الأخريات قد جئن من دول مختلفة من جنوب شرق آسيا.

بعد أن قضت سيري عدة أسابيع رهينة، طلبت من جوني يوماً أن يعيدها إلى تايلاند، فأخبرها بأنها تطلب المستحيل لأنها مدينة له بألف وخمسمئة دولار بدل النقل، وجواز السفر، والإيواء، والطعام وأجر المرأة الوسيطة. عندئذٍ، وعدهته بإمكانية تدبير هذا المبلغ إذا سمح لها بمهاذفة عائلتها. وعندما وافق على طلبها، اتصلت بعمّها، الشخص الوحيد الذي كانت تأمل منه إخراجها من هذه المحنة.

ساعدت هذه المعلومات محقق بعثة العدالة الدولية على وضع خطة للوصول إلى هذه العصابة الإجرامية. عن ذلك يقول: إن هذه الحالة تمثل عناصر الاتجار بالبشر جميعها؛ النصب، والاحتيال، وأشغال السخرة، والعبودية الجنسية، وانتهاك قانون الهجرة، والاختطاف؛ كل ذلك في شرك واحد.

ونظراً لمخاطر مواجهة شبكة مافيا معقدة إلى هذا الحد، طلب ليتون مساعدة من مكتب البعثة الرئيس في واشنطن، فأرسلت البعثة كبير محققيها، الذي يسميه ليتون «العبقري» حتى لا يكشف اسمه لحالات مستقبلية، إلى المدينة المقصودة عميلاً سرّياً.

بعدما قام محقق البعثة بجولات على بيوت الدعارة المعروفة في المدينة، تأكد بنفسه أن سيري لم تبلغ في وصف الحراسة المشددة المفروضة على هذه البيوت. كان الحراس المسلحون يستخدمون أجهزة اللاسلكي، ويقومون بجولات حول البنايات التي كانت تُغلق بأبواب حديدية، ويطل الحراس من كَوّات صغيرة فيها لاستطلاع الزبائن المحتملين، ثم تفتيشهم قبل دخولهم.

استطاع العبقرى أن يتجاوز الإجراءات الأمنية على الباب الأمامي للماخور، ثم أجلسه أحد سماسرة البغاء في شرفة يستطيع منها استعراض المومسات واختيار ما يحلو منهن.

لقد وصل المحقق الآن إلى نقطة حاسمة، ومن هنا اكتسب لقب العبقرى. أخذ يقيم على أرض الواقع المرشحات المحتملات اللواتي يمكن أن يتعاونَّ معه في التحقيق. ونظرًا للتهديد الدائم باستخدام العنف، كانت بعض النساء مرعوبات لدرجة لا يمكنهن معها خيانة السَّجانين. في حين كانت هناك بعض المومسات الراغبات في تقديم خدمة لسَّجانها من خلال كشف هوية المحقق. لذا، كان على العبقرى أن يتعامل مع النساء من خلال ملف صفات الشخصية الخاص به. أما كيف كان يفعل ذلك؟ إنَّه لغز حتى بالنسبة إلى ليتون نفسه.

على مدى الأيام اللاحقة، استطاع العبقرى إجراء مقابلات مع مجموعة من النساء اللواتي كن سعيدات بإطلاعه إلى حكاية اختطافهن وأسْرهن، ثم سجَّل هذه المقابلات، وطلب إليهن مواصلة عملهن كالمعتاد حتى لا يثرن شكوك أصحاب بيت الدعارة. وعلى الجانب الآخر، كان محامو بعثة العدالة الدولية يعملون على مدار الساعة لتحويل التسجيلات إلى تقرير قوي يمكن أن يدعم أي قضية مرفوعة أمام المحاكم ضد المجرمين.

كشف التحقيق تفاصيل كثيرة عن عصابة تهريب النساء اللواتي اختطفن رغماً عنهن من جميع دول جنوب شرق آسيا، وبخاصة: كمبوديا، وفيتنام، وبورما، ولاوس، وتايلاند، وجنوب الصين. كانت أصغر هؤلاء المختطفات فتاة عمرها 14 عاماً، في حين تراوحت أعمار معظم الأخريات بين 16 - 25 سنة. كان على كل مومس أن تخدم ما بين سبعة إلى ثمانية زبائن في الليلة الواحدة مقابل 40 دولاراً لكل معاشرة جنسية. وفي حال لم يكن هناك ما يكفي من العمل للبغايا كلهن، كانت العصابة توزعهن على بيوت مختلفة في أنحاء المدينة على شكل مجموعات من عشرين امرأة، مما يجعل من الصعب على الشرطة القبض عليهن. بعد ذلك، تبين أن عصابة مافيا آسيوية هي التي تدير هذه العصابة، وخلافاً أخرى في جميع دول جنوب شرق آسيا. أما زبائن بيوت الدعارة هذه، فهم رجال أعمال آسيويون أثرياء غالباً.

وعندما تأكد فريق بعثة العدالة الدولية أنه جمع أدلة كافية، تولى مهمة تنسيق التعاون بين مختلف أجهزة الشرطة في تايلاند والدول الأخرى المعنية. ولم تكن هذه الأجهزة قد تعاونت قبل هذا التاريخ في قضايا الاتجار بالبشر. والأهم من كل هذا، هو أن البعثة قدمت تقريراً بتحقيقاتها إلى السلطات العليا المشرفة على تطبيق القانون في ماليزيا. وبعد دراستهم لهذا التقرير، أظهر كبار ضباط الشرطة حماساً كبيراً للقضاء على هذه العصابة. ونظراً لوجود ثغرات في القانون المحلي، توصلت البعثة إلى اتفاق ينص على التزام الشرطة ببندين رئيسيين:

(1) معاملة المومسات على أنهن ضحايا لا مجرمات. (2) محاكمة المجرمين، لا مجرد اعتقالهم فقط.

في مطلع إبريل 2005، هاجمت قوات كبيرة من الشرطة عدداً من بيوت الدعارة الكبيرة العاملة في المدينة المستهدفة. ول سوء الحظ، تسربّ خبر الفارة،

ولم يُعتقل حينئذ سوى فرد واحد من أفراد العصابة. وبالرغم من هذا الفشل، إلا أن الشرطة استطاعت إنقاذ 95 امرأة.

لقد كانت هذه الحالة نقطة بداية بالنسبة إلى البعثة التي ركزت جهودها حتى الآن على كشف عمليات الاتجار بالبشر داخل تايلاند وكمبوديا. وبعد كشف الصورة العامة للاتجار بالبشر، قيّمت البعثة عملياتها لتتناسب مع حجم الشبكات المعقدة الآخذة في الانتشار في عموم جنوب شرق آسيا.

وفي مرحلة لاحقة، تمكنت الشرطة المحلية، في أعقاب عمل البعثة والشرطة، من اعتقال أحد العملاء الرئيسيين لعصابة التهريب هذه، وسبعة من المتعاونين معه، من بينهم المرأة التي احتالت على سيري. وقد رفع محامو البعثة قضية ضد هؤلاء، وأثبتوا أن المتاجرين بالبشر يمكن أن يلاقوا جزاءهم إذا ما طبّق القانون.

آني ديزلبيرغ؛ الشرطة على الحياة

عادة ما يتساءل أصدقاء آني في الولايات المتحدة ببراءة: لماذا لا تذهبين، ببساطة، إلى الشرطة والتبليغ عن إكراه النساء على ممارسة البغاء؟ عندما يُطرح عليها هذا السؤال، سرعان ما كانت تعود إليها صور تجارب لا تزال ماثلة في ذاكرتها. في عصر أحد الأيام، كانت آني تعبر أحد الشوارع الكبيرة في بانكوك، عندما سمعت صراخ امرأة كانت تتعرض إلى اعتداء على الجانب الآخر من الشارع. كانت المرأة تحاول الهرب من رجل يزيد حجمه على حجمها بمرتين، لكنه لم يلبث أن أمسك بها، ثم وضع شيئاً حاداً ولامعاً بيده اليمنى على رقبته، في حين استخدم يده الأخرى لجرحها إلى سيارة واقفة على الرصيف، وبابها مفتوح.

شعرت أني بانفعال كبير وهي تشاهد مأساة تلك المرأة، وأخذت تنظر من حولها محاولة فعل شيء لمساعدة تلك المرأة. وفجأة، أحست بارتياح عندما رأت رجل شرطة تايلاندياً يقف خلفها بلباسه الرسمي الكامل. كان الشرطي يراقب المشهد الدائر على الجانب الآخر من الشارع، ولكنه لم يفعل شيئاً يشير إلى أنه سوف يتدخل.

أحست أني بالغضب لأنها لا تطبق رؤية الظلم. ذهبت إلى الشرطي، وطلبت إليه بأدب اجتياز الشارع وإنقاذ المرأة. هزّ الشرطي كتفيه بلا مبالاة، وقال: إنها فتاته، وسوف يحلّان مشكلتهما لوحدهما. في تلك اللحظة، كان الرجل يدفع بالمرأة إلى الكرسي الخلفي من السيارة. ظلت المرأة تصرخ طالبة النجدة دون جدوى، أمّا الرجل فقفز إلى مقعد السائق، واندفع بسيارته محدثاً بعجلاتها صريراً يصمّ الآذان. نظرت أني في وجه الشرطي وقالت له: لمَ ترتدي هذا الزي؟

الرجال الذين يرفعون الطلب على النساء

تمتلئ شوارع بانكوك كل ليلة برجال في منتصف العمر، وهم يسIRON متشابكي الأيدي مع فتيات مراهقات. وفي الحقيقة أن سياح الجنس هؤلاء يأتون إلى هذه المدينة من أنحاء العالم بأسره لممارسة نزواتهم الشخصية. يدفع بعض هؤلاء الرجال ثمن متعة سريعة، في حين يفضل كثيرون شراء صديقة لليلة كاملة أو لعدة أيام. يتصرف هؤلاء الرجال كما لو أنّهم مراهقون صغار، ويسيّئون معاملة من يواعدونهن أمام الآخرين دون حياء.

وتروج وكالات سياحة متخصصة حول العالم مغامرات جنسية مثيرة مع مومسات آسيويات، خبيرات في إسعاد الرجال. وعندما ينجح سياح الجنس في التجربة الأولى، ويعرفون بأنفسهم سهولة شراء الفتيات الصغيرات، فغالباً ما يكررون هذه الزيارات الماجنة.

على المستوى العالمي، صُنِّفت تايلاند بأنها دنيا المغامرات الجنسية. وقد تتبع مجموعة تعنى بحقوق الطفل في بانكوك ازدهار سياحة الجنس على مدى عقدين من الزمن. وتظهر دراسات المجموعة أن مليوني سائح أجنبي زاروا تايلاند في عام 1984، مقابل أربعة ملايين زاروها في عام 1988، أما في عام 2003 فقد وفد إليها أكثر من 11 مليوناً⁽¹⁹⁾. ومن بين المجموع الكلي للزوار الأجانب، كان ثلثاهم من الرجال المنفردين، أي أن 7.3 مليون رجل منفرد زاروا تايلاند في عام 2003. وبالتأكيد أن كل هؤلاء السياح لم يأتوا للسياحة الجنسية، ولكن يمكن التقدير بأن عدداً كبيراً منهم جاء لهذه الغاية. وفي الحقيقة، وبناء على مسح لوكلاء السياحة أجرته وكالة المساعدة العالمية «آيد فيجن» فإن 65% من السياح القادمين إلى كمبوديا كانوا رجالاً؛ خمسهم جاءوا لممارسة الجنس⁽²⁰⁾.

إنّ الرجال الباحثين عن الجنس، القادمين من اليابان والصين وكوريا وتايوان يرفعون الطلب على الفتيات الصغيرات العذراوات. وهناك اعتقاد في هذه الثقافات الآسيوية، بأن ممارسة الجنس مع عذراء يجلب الحظ للمشاريع التجارية الجديدة. كما أن الفتيات العذراوى أقل خطراً في نقل الأمراض الجنسية. وجاء في تقرير أعده نيكولاس كريستوف، الحائز على جائزة بولتزر، في صحيفة نيويورك تايمز في عام 2009، أنه يُجرى إعادة ترقيع غشاء بكارة الفتيات لإعادة بيعهن كما لو أنهن أبكار. وقال إن إحداهن بيعت أربع مرات بهذه الطريقة⁽²¹⁾.

وقد أدى الطلب المتزايد على العذراوات إلى نشوء سوق فرعية خارج مسارب الجنس التجاري المعتادة - الحانات، أندية الغناء، وبيوت الدعارة. في هذه السوق، يقوم الآباء بتسويق عذرية بناتهم، كما لو أنهم وكلاء مستقلين. وقد يبيعون بناتهم من عمر 12 أو 13 سنة لمن يدفع أعلى سعر. ومع أن هذا الأسلوب غير شائع، إلا أن من المعروف بأن الرجال اليابانيين والصينيين كانوا يدفعون للآباء مقدماً لسنوات من أجل رعاية بناتهم الصغيرات. وبناء على هذا التقليد، تتلقى العائلات

دفعات منتظمة لتربية بنات صحيحات الأجساد. وعندما يكون الراعي جاهزاً، فإنه سوف يأتي لممارسة الرذيلة مع هذه الفتاة أو تلك.

ومن ناحية أخرى، يميل سياح الجنس الغربيين إلى ارتياد الحانات وبيوت الدعارة في المدن الكبرى، مثل بانكوك. ومع أن بعضهم قد يطلب ممارسة الجنس مع الأطفال، إلا أن معظمهم يتصرفون بطريقة انتهازية، بمعنى أنهم يتصرفون بتلقائية تجاه ما يحدث عندما يصلون إلى حانة جنس أو نادي غناء. وهناك بعض الرجال الذين ربما لم يكونوا قد خططوا مسبقاً للدخول في لعبة الجنس التجاري في رحلاتهم إلى جنوب شرق آسيا، ولكنهم يجدون الأمر سهلاً عندما يصلون إلى هناك.

ومن الواضح أن السياحة الجنسية تزيد الطلب على العبودية الجنسية، إلا أن مساهمتها في تجارة الجنس في جنوب شرق آسيا مبالغ فيها كثيراً في وسائل الإعلام العالمية. وفي الحقيقة أن العدد الأكبر من طالبي المتعة الجنسية مدفوعة الأجر هم من سكان البلاد الأصليين، وفق ما ذكرته الوزيرة السابقة لشؤون المرأة في كمبوديا موسوشوا، التي قالت: الأجانب ليسوا الوحيدين الذين يبتزون أطفالنا، بل إن المرض الحقيقي ينبع من داخلنا⁽²²⁾. وقد أكد هذه الحقيقة تقرير لصحيفة الأوكونومست البريطانية في عام 2008، جاء فيه: ما زالت حكومات جنوب شرق آسيا تتحدث أحياناً كما لو أنه لا يوجد شاذون محليون يميلون إلى ممارسة الجنس مع الأطفال. ومثلما كان عليه حال الغرب في الماضي، غالباً ما يكون الأغنياء فوق القانون⁽²³⁾.

وقد جرت العادة أن الرجال في كمبوديا وتايلاند، بشكل خاص، يرتادون بيوت الدعارة كجزء من التسلية الليلية. ويشير عدد من الدراسات التي أجريت في كل من كمبوديا وتايلاند إلى أن نحو 40% - 50% من الرجال يمارسون الزنا مقابل المال سنوياً⁽²⁴⁾. وتتقبل النساء المتزوجات بصمت حقيقة أن أزواجهن

سوف يدفعون نقوداً لممارسة الجنس مع الأولاد، وتبرر النساء ذلك بأن للرجال احتياجات جنسية، وأنهم على الأقل لا يسعون وراء النساء العازبات اللواتي يمكن أن يأخذن مكانهن.

وهكذا، فقد أصبح الزنا جزءاً من كثير من الطقوس الاجتماعية. فرجال الأعمال يستخدمون الجنس مدفوع الأجر على أنه تقليد من تقاليد إتمام الصفقات التجارية؛ فالشركة التي لا تقدم لزبائنها الجنس قد تخسر أمام شركة منافسة تقدم هذه الخدمة. أما رجال الطبقة العاملة فيقدمون الجنس لأصدقائهم في أعياد ميلادهم أو في المناسبات الخاصة. كما أن الآباء الشغوفين بأبنائهم يدفعونهم ليمروا بتجربتهم الجنسية الأولى في بيت دعارة.

آني ديزلبيرغ؛ فك السحر

تزر آني وفريقها حانات الجنس في بانكوك مرتين في الأسبوع ليتمكنوا من تمتين العلاقات مع النساء اللواتي يعملن فيها. وطالما ظلوا يطلبون المشروبات بمعدل معقول، فإن صاحب الحانة لا يمنعهم من الدخول. أما بعد أن ذاع صيت مشروع «نايت لايت» بديلا لنوادي الجنس، فقد أصبح أصحاب البارات يحذرون النساء العاملات من التحدث إلى آني وفريقها.

ما يزعج آني هو أن كثيراً من النساء قد استسلمن لمصيرهن، ولا يحاولن البحث عن طريق للخلاص. وسبب هذا الاستسلام هو أن أصحاب الحانات جعلوهن يعشن في رعب دائم من خلال تعريضهن للعنف وتهديد عائلاتهن. ويأخذ العنف هناك أشكالا متعددة، فبالإضافة إلى الضرب، يلجأ أصحاب تلك الحانات إلى السيطرة على أولئك النساء البائسات عاطفياً وروحياً.

ويلجأ بعض أصحاب الحانات إلى إجراء طقوس روحية داخل الحانة في المساء قبل خروج الفتيات إلى مواعدهن. وقد حضرت آني بعض هذه الطقوس، ووصفت المشاهد الغريبة التي رأتها. ومن هذه الطقوس، أن صاحب الحانة يرتب النساء في حلقة، ثم يأتي بطوطم (عمود خشبي منحوت ومزين بنقوش ورموز بوذية) على صورة العضو الذكري. بعد ذلك، يرش الرجل ماء على الطوطم، ثم يمرره على النساء ليتحسّنه. بعد أن يمرّ الطوطم على النساء جميعهن في الحلقة، يحمل الرجل ويدور به في أرجاء الحانة، ويلمس به الطاولات التي سيجلس عليها الزبون في تلك الليلة. وأخيراً، ينتقي الرجل فتاتين لإنهاء الطقوس الاحتفالية. تخرج الفتاتان إلى باب الحانة الأمامي، وتضعان الطوطم بين أرجلهما، ثم يرشان الماء بأرجلهما صوب الشارع.

إنّ هذه الطقوس الدينية ذات أثر كبير في نفوس النساء، وبخاصة النساء القرويات اللواتي نشأن في مناطق ريفية نائية، حيث يعتقد الناس هناك أن الأرواح إذا ما دخلت إنساناً ما فإنها تتلبسه بالكامل. وكثيراً ما كانت النساء اللواتي يكرهن تجارة الجنس يسألن آني كيفية التخلص من الأرواح الشريرة. وحتى لو أن هؤلاء النسوة هربن من قبضة صاحب الحانة، فلن يتخلصن أبداً من اعتقادهن بمسّ الجن لهن.

وتوضح آني أن مقاومة شبكات الإجرام التي تسيطر على تجارة الجنس يجب أن لا تقتصر فقط على مجرد الجهود المتواضعة لمكافحة الرق، بل على الأديان القيام بدورها أيضاً. وعن ذلك تقول: لقد قضيت معظم طفولتي في زائير (الكونغو) وفي تايلاند، وقد شاهدت ما يكفي من الظلم. ولكنني عندما أرى الظلمة التي تغطي حياة النساء والأطفال الصغار في تجارة الجنس، فإني أشعر أنني أواجه شياطين مرّدة.

ولهذا السبب، فإنها تحث المنظمات الدينية على المساهمة في الجهود الدولية الرامية إلى مكافحة تجارة الجنس؛ فالعالم بحاجة ماسة إلى الحب والتماسك العائلي. وعلى الذين يقولون إن الدين يدعو لهذا، أن يقرنوا القول بالعمل، وأن يخرجوا إلى الشارع ويعيشوا الواقع كما هو.

كرو نام؛ أم لأكثر من مئة طفل

كانت كرو نام كثيراً ما تسأل تشان إن كان يرغب في العودة إلى بيته ليعرف ما إذا أطلق سراح أخته وأنها عادت إلى البيت. وفي كل مرة تسأله فيها، كان تشان يهز رأسه بالنفي. وفي آخر مرة سألته هذا السؤال، كشف لها شيئاً كان يخفيه عنها. قال لها بأنه تسلل إلى كمبوديا قبل عام مضى، واستطاع حتى في جنح الظلام معرفة أن أمه لم تعد موجودة في المنزل، وأن عائلة أخرى سكنته. ولو أنه قدّر لتشان أن يهتدي إلى المصنع مرة أخرى، فربما وجد أن صاحب المصنع قد تغير أيضاً لأن المشاريع التجارية في مدينة ماي ساي عادة ما تكون مؤقتة؛ فتجار الرقيق لا يستقرون في مكان واحد مدة طويلة.

مرت ثماني سنوات على بيع تشان وشقيقته إلى تاجر الرقيق، ولا يعرف تشان إن كانت شقيقته أو أمه على قيد الحياة أم لا. وبالرغم من هذه المعاناة كلها، إلا أن تشان سعيد بحريته، وهو مع 120 طفلاً آخرين يشعرون بالامتنان لانعتاقهم من العبودية، بفضل فنانة تشكيلية آمنت بأن موهبتها العظيمة تكمن في إنقاذ الأطفال، لا في رسم اللوحات الفنية.

الحملة الكبرى ؛ مساعدة كرو نام وأني ديزلبيرغ

كما جاء بالتفصيل في نهاية هذا الكتاب، فقد كانت شجاعة كرو نام النادرة في إنقاذ الأطفال هي ما حفزني إلى التحول من مؤلف إلى ناشط في الحركة المناهضة للرق في العالم.

وهذا ما يبرر تركيز جهود حملة « ليس للبيع » العالمية على ما يجري في تايلاند.

وفي الوقت الذي كان فيه هذا الكتاب على وشك الطباعة. كانت كرو نام قد أنقذت أكثر من 60 طفلا، وحصلت على قطعة أرض في منطقة المثلث الذهبي عند التقاء حدود لاوس وبورما وتايلاند، ولكنها ظلت تعيش مع الأطفال في خيام وملاجئ مؤقتة. وقد وعدتها ببناء مساكن دائمة لها، ونجحنا في جمع الأموال اللازمة في عام 2007. ومنذ ذلك الحين، ونحن نمد لها يد المساعدة على توسيع قرية الأطفال تلك، وإضافة دور جديدة. وفي نهاية عام 2009، استطعنا بناء مستشفى بما يلزمه من معدات ومستلزمات طبية بقيمة مليوني دولار. كان هذا المستشفى يقدم الخدمة لسكان المنطقة المجاورة، وليس للأطفال المحررين فقط.

كما افتتحت الحملة في عام 2007 متجر الحرية التجاري الذي يُسوَّق مجوهرات مشروع « نايت لايت » الذي أطلقته آني ديزلبيرغ. ويذهب ريع كل عقد، أو سوار، أو حلق أذن، يباع في المتجر أو عبر موقعه على الإنترنت، أو في حفلات دعم الحرية، إلى فريق آني ديزلبيرغ.

هاتان المبادرتان في تايلاند وجهان لعملة واحدة؛ فكرو نام تنقذ الأطفال، في حين تنقذ آني ديزلبيرغ النساء. وفي الوقت الذي تقدم فيه كرو نام التعليم

والعلاج للأطفال للعناية بصحتهم وتطورهم على المدى البعيد، تقدم آني ديزلبيرغ الدعم العاطفي والاقتصادي المستدام للنساء اللواتي لم يحظين في حياتهن بفرصة إعالة أنفسهن وعائلاتهن من خلال دخلهن في المشروع. وعندما تصلح كرو نام الجيل التالي من التايلانديين، تعمل آني ديزلبيرغ على إنقاذ الجيل الحالي. وتلتزم حملة « ليس للبيع » بأن تظل شريكاً فاعلاً مع هاتين المناضلتين الشجاعتين اللتين تظهران للعالم أهمية تكاثف جهود المناهضين للعبودية في العالم من المذاهب والأطياف كافة، مثلما تتكاثف أشعة الضوء لطرد جيوش الظلام.